قصاصات الورق

خمسة عشر عاماً بعد فرساى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

مازالت الحرب الكبرى توصف بأنها أشنع وأروع مآسى التاريخ ، ومازالت مصائبها وعبرها وآثارها المخربة ماثلة فى أمم وشعوب كثيرة ؛ وكنا الى أعوام قلائل فقط نسمع أقطاب السياسة الدولية يؤكدون أن الدرس الأليم الذى ألقته الحرب على الدول والأمم العظمى لا يمكن أن يمر دون أن يحدث أثره ؛ وأن الشعوب أشد ما يكون اليوم زهداً فى خوض الحرب والتعرض لويلاتها المروعة ؛ وكنا نشهد ابتهاج الساسة والحكومات كلما عقد ميثاق جديد بعدم الاعتداء بين دولتين أو أكثر ، أو حلت مشكلة دولية صغيرة على يد عصبة الأمم بطريق التحكيم والحسنى ، أو ظهرت بوادر تفاهم ووئام بين خصوم الأمس ؛ كنا نشهد ذلك وأمثاله خلال الأعوام التى تلت الحرب ، فيخيل الينا أن نزعة الحرب والاعتداء قد ضعفت ، وأن عقلية الشعوب قد تبدلت ، وأن العالم مقبل على عصر جديد ، تتبوأ فيه قضية السلام مكانها اللائق ، وتفيض فيه الخصومات والأحقاد القومية القديمة ، ويسود الوئام والحسنى بين الشعوب .

ولكنا نشهد اليوم منظراً آخر ؛ فان الأفق الدولى يفيض بالتشاؤم ، وعلائق الدول المختلفة فى اضطراب دائم ، وعبارات الوعيد والحرب والانتقام تتردد فى بعض الدوائر ، وأحياناً يلوح بها بعض الساسة المسئولين ؛ وهنالك بعض المسائل الخطيرة التى خلفتها الحرب الكبرى مثل مشكلة نزع السلاح ، ومسألة السار ، ومسائل الحدود والاقليات ، ومسألة المستعمرات الألمانية وغيرها تزداد اليوم خطورة وتعقيداً ، بل إنا لنشهد اليوم انتحار مؤتمر نزع السلاح فى جنيف ، وهو ذلك المؤتمر الذى علقت عليه قبل بضعة أعوام آمال كبيرة فى تخفيض التسليح والتقريب بين الأمم ، ونشهد عصبة الأمم تفقد يوماً بعد يوم هيبتها الدولية وتنحدر بسرعة الى زاوية النسيان ، وهى الصرح الذى هللت له الأمم يوم إنشائه ، وقيل إنه سيكون منارة السلام العالمى والعدالة الدولية ، وملاذ الأمم الضعيفة والمظلومة . والخلاصة أن تلك الآمال العريضة التى ساورت العالم حيناً عقب دروس الحرب الأليمة فى أن تعتبر الأمم بتلك العبر القاسية وبتلك الضحايا الهائلة ، وتغلب الروية والتفاهم فى حسم مشاكلها ، قد أخذت فى الأعوام الأخيرة تنهار تباعاً ، ولا نكاد نلمس اليوم من آثارها شيئاً .

لقد اختتمت الحرب الكبرى بعدة معاهدات للصلح بين الأمم المتحاربة ، أعظمها وأهمها معاهدة فرساى ، التى أريد أن تكون دستوراً جامعاً لتنظيم أوربا الجديدة سواء من الوجهة الجغرافية ، أو العسكرية أو الاقتصادية . ولكن معاهدات الصلح ، كأية معاهدة يعقدها الغالب مع المغلوب ، أو بعبارة أخرى يمليها الغالب على المغلوب ، لم تخل من المبالغة والاغراق ، ولم تحرص على مراعاة الحقائق التاريخية الخالدة ، ولم تراع العواطف القومية لأمم عظيمة ، وإنما روعى فيها قبل كل شىء أن تحقق شهوات الظافرين ومطامعهم وخططهم فى تمزيق الأمم المغلوبة وتحطيم قواها ومواردها . ففى معاهدة فرساى أرغمت ألمانيا على الاقرار بأنها مسئولة عن إثارة الحرب الكبرى ، وألزمت بناء على ذلك بدفع تعويضات الحرب الهائلة ، ونص على تجريدها من السلاح ، وتدمير أسطولها ، وانتزعت منها الألزاس واللورين لترد الى فرنسا ، كما انتزعت سيليزيا العليا ، ودانتزج ، ووادى السار ، وفرضت عليها غير ذلك قروض مرهقة كثيرة ؛ وفى معاهدة سان جرمان حلت امبراطورية النمسا والمجر القديمة لتقوم على أنقاضها عدة دول جديدة ، وانتزعت منها أراض كثيرة لتعطى لايطاليا ويوجوسلافيا ورومانيا ؛ وهكذا غيرت معاهدات الصلح حدود أوربا القديمة ، وأثارت فى كل مكان مشاكل الاقليات القومية ، ودفعت بالشعوب المغلوبة الى غمار البؤس والهاوية ، وأثارت بذلك مشاكل اجتماعية خطيرة . ولم يكن يدور بخلد الساسة الذين أملوا هذه المعاهدات المرهقة على الأمم المغلوبة ، أنها ستغدو منذ يوم وضعها مثاراً لمشاكل لا نهاية لها ، وأنها ستنقض غير بعيد فى كثير من نصوصها ، وأنها ستعتبر فى النهاية أصل كل متاعب أوربا الجديدة ، وأنها اذا استمرت على حالها فقد تثير ضرام الحرب مرة أخرى ، ولكن هذا ما وقع بالفعل ، وهذا ما نشهد اليوم ،

فقد عدل كثير من نصوص معاهدة الصلح فى الأعوام الأخيرة ، وهى اليوم مثار حملات شديدة ، لا من المانيا وباقى الدول التى أرهقت بنصوصها فقط ، ولكن من ايطاليا احدى دول الحلفاء التى اشتركت فى اجتناء مغانم النصر ، بل انا لنرى مستر لويد جورج أحد الأقطاب الذين وضعوا المعاهدة وأشدهم وقت وضعها وطأة على المانيا ينادى اليوم بفداحة الشروط التى وضعت ويقترح مثل ايطاليا تعديل المعاهدة وانصاف المانيا ؛ ونرى فرنسا التى فازت بأعظم مغانم الصلح واستغلت المعاهدة الى الذروة ، تأبى أن تنفذ مشروع نزع السلاح الذى نصت عليه المعاهدة وأدمجه الحلفاء فيها كنتيجة لنزع سلاح ألمانيا ؛ وفى أواسط أوربا وشرقها تثار عشرات المشاكل التى ترتبت على اجحاف معاهدات الصلح بالحقوق الجغرافية والقومية لمختلف الدول . والخلاصة ان معاهدات الصلح تغدو اليوم كالثوب المهلهل ، ويغدو الأفق الدولى مثقلاً بالسحب ومختلف الاحتمالات .

قبل الحرب كانت السياسة القومية المفرقة ، والسلام المدجج بالسلاح ، وانشاء المحالفات العسكرية الدفاعية والهجومية ، وعقد المعاهدات السرية ، هى قواعد السياسة الدولية ، وهى التى توجه علائق الدول بعضها ببعض . ولم تكن الفكرة فى تنظيم علائق الأمم قد تقدمت يومئذ كثيراً عما كانت عليه قبل ذلك بقرون ؛ فقد كانت هذه القواعد هى الغالبة فى العلاقات الدولية فى جميع عصور التاريخ الحديث منذ قامت أوربا الحديثة على انقاض العصور الوسطى ، بل كانت هى الغالبة فى العصور الوسطى والقديمة مع فروق يسيرة فى علائق السلام والحرب ؛ وكانت الأطماع القومية فى بسط النفوذ واجتناء مغانم الاستعمار والتجارة هى التى تحرك الأمم بعضها ضد بعض ، وكانت الحرب وسيلة فريدة لتحقيق هذه المثل ؛ وقد كشفت لنا الحرب الكبرى عن المدى الذى وصلت اليه الدول العظمى ما قبل الحرب فى الاعتماد على التسليح والمعاهدات السرية ، وفى التنافس على اجتناء المغانم الاستعمارية واستعباد الأمم الضعيفة ؛ ثم جاءت معاهدات الصلح بعد محنة الحرب دليلاً قوياً على أن هذه النزعات الخطرة لم تخمد بل أذكاها الظفر فى نفوس الأمم الغالبة ، على أن نزعة أخرى برزت من خلال هذه الغبار ترمى الى العمل على التقريب بين الأمم ، وتخفيف حدة الأحقاد القومية التى أثارت الحرب ؛ وقد أريد أن تكون عصبة الأمم رمزاً لهذا الاتجاه الجديد ؛ ولكن العصبة ولدت ميتة من هذه الناحية ، واستطاعت العوامل السياسية الخفية أن تسيطر عليها منذ الساعة الأولى ، وأن توجهها حيث شاءت ، وأن تستغل نفوذها الدولى ؛ ولما أن بدت بوادر التفاهم بين المانيا وخصومها بالأمس ، وفازت سياسة التقرب والحسنى بعقد ميثاق لوكارنو سنة ١٩٢٥ ، هلل العالم مرة أخرى ، واستقبل هذا الميثاق الذى يجمع بين أعداء الأمس ويقضى بتأمين منطقة الرين بين فرنسا والمانيا ، بوابل من الآمال الكبيرة ، واعتقد أن الميثاق سيكون فاتحة لظفر السلام وقضيته ؛ وساد فى الأفق الدولى مدى حين نوع من التفاؤل ، وحلت أثناء ذلك عدة مشاكل دولية خطيرة بالتفاهم والحسنى ؛ ثم كانت الخطوة التالية بعقد ميثاق تحريم الحرب ، أو ميثاق كيلوج سنة ١٩٢٩ ، وهو الميثاق الشهير الذى يقضى بتحريم الحرب كأساس للسياسة القومية ووسيلة لمعالجة المشاكل الدولية ، ويقضى باستعمال التحكيم كوسيلة لحسم المنازعات بين الأمم ، وقد جمع هذا الميثاق بين جميع الدول العظمى وبين أعداء الأمس ، وانضم اليه عشرات من الدول فى أوربا وأمريكا وآسيا ، ووقعته مصر أيضاً ، واعتبر يوم وضعه كأنه انجيل جديد للسلام ، واستقبل بأناشيد المديح والاعجاب فى كل مكان ؛ وكان عقد ميثاق تحريم الحرب فى الواقع ذروة لظفر النزعة السلمية التى حملت الساسة والأمم فى ذلك الحين ؛ ولكنه كان ظفراً نظرياً فقط ؛ ولم يمض سوى عام واحد حتى ظهر أن تطبيق الميثاق مستحيل من الوجهة العملية ، وأنه ولد ميتاً كمشروع عصبة الأمم .

وهكذا ظهر عبث العهود والمواثيق الدولية مرة أخرى ، وانهارت جميع الجهود التى بذلها أنصار السلام من الوجهة العملية ؛ ولم يبق أمامنا من تراث هذا الماضى القريب سوى عصبة الأمم . ومأساة العصبة معروفة ، فقد ظهر فشلها وعقمها فى كل مسألة دولية خطيرة ، وكل مسألة تقتضى العدالة والانصاف ، وظهر أنها أداة مسيرة فى يد الدول الاستعمارية تتجاذب فى داخلها النفوذ والوحى ؛ وهذا مؤتمر نزع السلاح الذى أنشأته العصبة لتحقق على يده برنامجها السلمى يحتضر ويسير الى موت محقق . ولم يشهد العالم منذ نهاية الحرب ظرفاً أظلم فيه الأفق الدولى مثل الظرف الذى

نشهد اليوم ؛ فاليابان قد انسحبت من العصبة لتطلق العنان لمشاريعها الاستعمارية فى الصين ، وهى اليوم بتوغلها فى الصين وتحديها جميع الدول الأخرى تثير خطر الحرب فى الشرق الأقصى؛ وقد انسحبت المانيا الهتلرية ايضاً من العصبة ، وهى اليوم تعود الى تسليح نفسها منفردة خصوصا بالأمس ولا سيما فرنسا ، وتعمل بكل ماوسعت لاثارة الاحقاد القومية فى الداخل والخارج ، وفرنسا من جانبها تعود بمنتهى الشدة الى سياستها القومية القديمة وتبذل جهوداً فادحة لتقوية جيشها وتسليحاتها ، وانكلترا وأمريكا تسيران فى نفس الطريق وتعملان لتقوية التسليحات البحرية والجوية ؛ وايطاليا تقوى جيشها وتسليحاتها منذ أعوام وتلوح من آن لآخر بالحرب ، ولاتخفى مطامعها الاستعمارية فى آسيا وأفريقية ، وروسيا السوفيتية تقف لليابان بالمرصاد فى الشرق الأقصى ، وتركيا تطالب بالعود الى تحصين الدردنيل بعد أن قضت معاهدة لوزان بنزع سلاحه ؛ وتجرى فى القارة من أقصاها الى أقصاها حركة ازعاج وتوجس ، وتجرى مختلف المفاوضات بين دول البلقان وأوربا الوسطى ودول البلطيق ، وتعقد المواثيق هنا وهناك لتنظيم الجباه السياسية والعسكرية وأحكام المحالفات ، وتتنافس دول القارة العظمى أعنى فرنسا وألمانيا وايطاليا فى تنظيم هذه الحركات وتسييرها .

والواقع أن التاريخ القريب يتكرر ويتصل ؛ ومايجرى اليوم فى العالم من الاحداث السياسية والمنازعات الدولية يشبه من وجوه كثيرة ما كان يجرى قبل الحرب بأعوام قلائل فقط ، من تسابق الدول العظمى فى التسليح والاستعداد الحربى ، ومن تنافسها وتنازعها فى اجتناء المغانم الاستعمارية والتجارية ، ومن توتر اعصاب الحكومات والساسة ، ومن العمل على اذكاء الاحقاد القومية ؛ وقد ثارت فى الأعوام القلائل التى سبقت الحرب بعض مشاكل دولية خطيرة كانت مقدمة لانقضاض العاصفة ؛ والأفق الدولى مثقل اليوم بكثير من هذه المشاكل ؛ ويكفى أن مسألة كمسألة السار قد تضرم الشرارة الأولى ، كما أن مسألة أغادير كادت قبل الحرب بعامين تضرم هذه الشرارة ؛ ونستطيع أن نشبه رحلة مسيو هريو رئيس وزارة فرنسا الأسبق الى روسيا منذ عام ، أو رحلة مسيو بارتو وزير خارجيتها الى بولونيا ودول الاتفاق الصغير ، برحلة مسيو بوانكاريه الى روسيا قبيل الحرب الكبرى بأسابيع قلائل . ولقد وصفت المعاهدات الدولية فى فاتحة الحرب على لسان بعض الساسة الألمان بأنها قصاصات ورق والتاريخ يؤيد هذا القول فى كثير من المواطن ؛ ولكن هذا القول اعتبر أثناء الحرب من الكبائر وسجل على ألمانيا ضمن الأخطاء الفادحة التى بنيت عليها مسئوليتها فى إثارة الحرب . أما اليوم ، ونحن نشهد عقم المواثيق والعهود الدولية الكثيرة التى وضعت لتسوية المشاكل والعلائق الدولية ؛ ونشهد انهيار عصبة الأمم ومؤتمر نزع السلاح ، وميثاق تحريم الحرب ، ومعاهدة واشنطون التى تعهدت الدول العظمى فيها بتحديد التسليح البحرى ، ونقض معاهدات الصلح سواء من جانب الغالب أو المغلوب ، فانه يسمح لنا أن نكرر القول القديم بأن العهود والمواثيق الدولية تغدو دائماً قصاصات من الورق كلما شاءت السياسة والاعتبارات القومية!

محمد عبد الله عنان
المحامى